بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 06 ماي 2016

القراءة التاريخية ومقوماتها التأويلية

عند المستشرق الفرنسي بلاشير لموضوعات العقيدة الإسلامية في السور المكية، كتابه "القرآن" أنموذجًا

محي الدين بن عمار
باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

القراءة التاريخية ومقوماتها التأويلية

عند المستشرق الفرنسي بلاشير[1] لموضوعات العقيدة الإسلامية في السور المكية، كتابه «القرآن» أنموذجًا

[1] مستشرق فرنسي شهير، ولد في مون روج بالقرب من باريس سنة 1900م تلقى دروسه الثانوية بالدار البيضاء، وتخرج من كلية الآداب بالجزائر سنة 1922م، وقد انتدب مديرًا لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط بين 1935-1924، ثم عين أستاذًا لكرسي الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية في باريس سنة 1952م، نال الدكتوراه سنة 1936، وعين أستاذًا محاضرًا في السوربون سنة 1938م ثم مديراً لمدرسة الدراسات العليا العلمية سنة 1942، ومشرفًا على مجلة المعرفة باللغتين العربية والفرنسية، من أهم آثاره "المتنبي حياته وآثاره، قواعد العربية الفصحى، معضلة محمد، وترجمة القرآن في ثلاثة أجزاء والقرآن" توفي سنة 1973م ينظر: موسوعة المستشرقين: عبد الرحمان بدوي، دار المعلمين، بيروت، ط3، يوليو 1993م، ص 172

الملخص:

لقد نال القرآن الكريم جل اهتمام المستشرقين ودراساتهم العلمية للتراث العربي وكانت آراؤهم ومذاهبهم فيه وحوله متنوعة مناهج وقراءات وتحليلات واستنتاجات عامة أو خاصة، وكتاب المستشرق الفرنسي بلاشير «القرآن» نموذج من هذه الآراء والقراءات الخاصة، اعتصر فيه خلاصة عمله في حقل الإسلاميات، وعرض فيه موضوعات متعددة ومترابطة فيما بينها، بقراءة تاريخية أوصلته إلى تبني قناعات وأفكار حول القرآن الكريم.

وفي ثنايا هذا البحث عرض لمفاهيم القراءة التاريخية، ومقوماتها التأويلية لمعاني النص القرآني، ثم تلخيص لقراءة بلاشير لموضوعات العقيدة الإسلامية في السور المكية وفق الترتيب التاريخي الذي ارتضاه المستشرقون ـ الترتيب التاريخي الخاص عند المستشرق الألماني نولدكه، مصورة آثار أفكار الكتب السماوية في العهد المدني عند اليهود، أو بعض أفكار البيئة العربية المحيطة به في نسج أفكار النبي الإصلاحية ـ على حد تعبير المستشرقين ـ وإيداعها في كتاب القرآن. وفي خاتمة البحث تعقب هذه القراءة بالقراءة الموضوعية لهذه الموضوعات، والتنبيه ـ في آن واحد ـ للضوابط اللغوية والتاريخية في تكوين القراءة الراشدة للنص القرآني.

Abstract: We have received the Koran the bulk of the attention of the Orientalist and scientific study of the Arab heritage and was surveyed and sects in which and around a variety of approaches and readings, analyzes and conclusions of the public or private, and book French Orientalist Blachère “Koran” model of these views and private readings, wrung it Summary his work in the field of Islamism, and display the multiple, interrelated topics among themselves, historical reading led him to embrace the convictions and ideas about the Koran. And in the folds of this research show the concepts of historical reading, and its components interpretive of the meanings of the Quranic text, and then summed to read Blachère topics of the Islamic faith in the fence Meccan according to the historical order in which the favored Orientalists special historical arrangement when the German Orientalist Nöldeke, pictorial effects of the ideas of the heavenly books in the Covenant Civil Jews or some Arab environment Alhkhath ideas in the weave of the Prophet reformist ideas in the words of the Orientalists and deposited in the book of the Koran, and in the finale Find track reading this objective reading of these topics, and alarm at the same linguistic and historical controls in the composition of the adult reading the text of the Qur’an.

إشكالية البحث:

تتعلق الإشكالية المنهجية هنا بمدى استراتيجية القراءة التاريخية للنص القرآني عند المستشرقين ونجاعتها وعن مدى إسهام ثقافاتهم وقراءاتهم الأيديولوجية الفكرية، والألسنية اللغوية في تأسيس قراءة موضوعية تتوافق ومقصدية النص القرآني؟

هل أمكن لهذه القراءة التاريخية أن تؤسس نسقًا معرفيًا متكاملاً تتناغم فيه أقطابه الثلاثة: الذات العارفة، والموضوع، والمنهج المتبع؟ وهل يمكن لهذه القراءات أن تتحرر عن الضوابط اللغوية والسياقات التاريخية (المناسبات وأسباب النزول) ركونًا في ذلك إلى المقومات الأيديولوجية، والمناهج الألسنية الغربية؟.

بمعنى آخر: هل للتأويل المعرفي والثقافي حدود وضوابط يلتزم بها متعلقة بعتبات النص ولغته؟ أم أنّها لا نهائية التأويل[1] طبعًا على حسب ثقافة القارئ النموذجي في هذا المجال؟.

مدخل عام: حول التعريف بمحاور كتاب بلاشير «القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره»

يعد هذا الكتاب واحدًا من أهم كتب المستشرقين الأوروبيين ومؤلفاتهم ـ خاصة ـ في دراساتهم الأكاديمية الكثيرة حول القرآن الكريم، يعكس عقلية الغرب ومواقفه الوجسة والحاقدة ضد هذا القرآن، وذلك لما رأوا فيه مصدرًا ورافدًا أساسيًا في بناء شخصية الإسلام وحضارته، وفي ذلك قال بلاشير نفسه: «**قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتابًا بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن**»[2].

من هذا المنطلق جهد بلاشير فكره في ترجمة معاني القرآن الكريم[3]، ودراسة علومه ومقاصده، نقلاً للمعرفة أولاً، وتحقيقًا لأغراض الغرب وأطماعهم في بلاد الشرق في آن واحد، فكان هذا المؤلف عارضًا لموضوعات تاريخ الدعوة الإسلامية قديمًا وحديثًا[4] في سبعة فصول كبرى، الأول في دراسة المصحف العثماني في بنيته وتكوينه، والثاني والثالث في تحديد رسالة القرآن في مكة ثم في المدينة[5] والرابع في علوم القرآن الكريم[6]، والخامس لتفسير القرآن في أصوله وأغراضه ومؤلفاته ومناهجه[7]، والسادس: خصص

1 يراجع مثلاً كتاب: من النص إلى الفعل: أبحاث عن التأويل: بول ريكور. ترجمة محمد برادة وآخر، المركز الفرنسي للثقافة، القاهرة، ط 1، 2001، ص 158

2 القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره: بلاشير، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1974، ص 07

3 وذلك بترجمته إلى ثلاثة أجزاء باللغة الفرنسية: ينظر: موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص 172

4 القرآن: ريجي بلاشير ـ مصدر سابق، ص 23

5 المصدر نفسه: ص 45، 66

6 المصدر نفسه: ص 90

7 المصدر نفسه: ص 106

لبيان مكانة القرآن الكريم والسنة الصدارة في تأسيس العقائد والشرائع[8]، والأخير لمكانتهما عند المجتمع الإسلامي[9].

لقد استحضر بلاشير أفكاره وتسلح بعلوم الغرب ومناهجه الأيديولوجية والألسنية، واستحضر أفكار المستشرقين السابقين ـ خاصة نولدكه ـ في إنتاج قراءة خاصة حول القرآن الكريم قال عنها: «**ابتغينا أن نجمع هنا كل مالا يجوز جهله من رسالة قيل إنّها عقيدة وشريعة، وكانت في الواقع عنصرًا من العناصر الأساسية لحضارة مرت في أشمل تجديد**»[10]

المبحث الأول: القراءة التاريخية، مقوماتها الأيديولوجية والألسنية، وأهدافها العامة.

يدل مصطلح **"التاريخية"** ـ كما قال علي حرب ـ: »أنّ للأحداث والممارسات والخطابات أصلها الواقعي، وحيثياتها الزمانية والمكانية، وشروطها المادية والدنيوية، كما تعني خضوع البنى والمؤسسات والمصطلحات للتطور والتغير أي قابليتها للتحويل والصرف وإعادة التوظيف«[11].

فهي مشتقة إذن من التاريخ الذي يطلق على » ما تعاقب على الشيء في الماضي من الأحوال المختلفة سواء أكان ذلك الشيء ماديًا أم معنويًا«[12]

وهذه الأحوال المتعاقبة التي تمر بها البشرية تتسم بالتنوع في الأطر الثقافية والإنسانية والتعاقب في التأثير في حوادث البشر وما حقيقة التاريخية **(emsirotsih)** إلا «القول إنّ الأمور الحاضرة ناشئة عن التطور التاريخي«[13].

وقد كانت أوروبا بفلاسفتها ونظرياتها والإيديولوجية الفكرية في مستهل القرن الحديث محصنًا لظهور المذهب التاريخي ونضجه في الفكر والأدب والنقد مؤكدًا «أنّنا لا نستطيع أن نحكم على الأفكار والحوادث إلا بالنسبة إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه لا بالنسبة إلى قيمتها الذاتية«[14] وكان ذلك على يد فيكو (ت 1744م)، ومونتسكيو، وتورغو، وغيزو، وهيجل وغيرهم.

---

8 المصدر نفسه: ص 129

9 المصدر نفسه: ص 158

10 المصدر نفسه: ص 21

11 نقد النص: علي حرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1993م، ص 65

12 المعجم الفلسفي: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مكتبة المدرسة، بيروت، 1982، 228/1

13 المصدر نفسه: 229/1

14 المصدر نفسه: 229/1

وتفسير الأفكار والحوادث من خلال سياقاتها، وتأويلها مع ما يتوافق عناصر التاريخ الثلاثة: الشخصية، البيئة، الزمان فقط، دون باقي المناهج الأخرى هو الذي أسس معالم المذهب التاريخي في الجامعات الغربية بمناهجها المتنوعة نقدية لغوية، أو استشراقية فكرية؛ أي: هو مذهب التاريخانية الذي "هو مستمد من الحتمية التاريخية الأوروبية وفلسفتها العلمية الفردية"[15]، وذلك لبيان تأثير البيئة في إنتاج الأفكار وتفسير الأحداث، مما يطبع هذه القراءات لهذه الأفكار والحوادث بسمة الذاتية، وينتج دلالات تفسيرية مختلف فيها.

ومن أشهر فلاسفة أوروبا ولغوييها المتخصصين في توظيف هذا المنهج وفي اعتناق هذا المذهب: هيبوليت تين (ت 1893 م)، ومعاصره سانت بيف (ت 1869 م)، فالأول درس النصوص الأدبية في ضوء تأثير ثلاثيته الشهيرة (العرق أو الجنس، البيئة أو الوسط، ثم الزمان أو العصر)[16]، والثاني منها ركز على شخصية الأديب تركيزًا مطلقًا مقررًا بذلك أنّ النص تعبير عن مزاج فردي[17]، لذلك دعا إلى دراسة حياة الكاتب دراسة تفصيلية في إطار ما يسميه "وعاء الكاتب" مما حدا - بعد ذلك - بمحمد مندور أن يصفه "بعميد النقد التفسيري"[18]

وقد عول المستشرقون كثيرًا على قواعد المنهج التاريخي وإجراءاته في قراءة النصوص الأدبية والدينية معًا، وذلك وصولاً إلى هدف فكري وأيديولوجي واحد، هو أنّ هذه النصوص - بما فيها القرآن - هي إفراز منطقي وطبيعي للآراء والأفكار المشتهرة في تلك البيئة[19] كما نجد ذلك عند جولد تسيهر (ت 1921) [20]، القائل: «فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرًا عميقًا...»[21]

15 القراءة الأدبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي: الحسن بوتنبيا، المطبعة الورقية الوطنية مراكش، المغرب، ط1، 2010، ص97

16 مناهج النقد الأدبي: يوسف وغليسي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر ط 1، 2007م، ص 16

17 المرجع نفسه: ص 17

18 في الأدب والنقد: محمد مندور، دار النهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص 89

19 يراجع مثلاً كتاب: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره «دراسة ونقد»: عمر بن إبراهيم رضوان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1992، 99/1 وما بعدها، وكتاب الاستشراق والمستشرقون (مالهم وما عليهم): مصطفى الساعي، دار الوراق، والمكتب الإسلامي: د.ن.د.ت، ص25 وما بعدها وكتاب: القرآن الكريم في المنظور الاستشراقي: محمد محمد أبو ليلة: دار النشر للجامعات، مصر، ط1، 2002م، ص103و ما بعدها.

20 مستشرق وفيلسوف مجري من أسرة يهودية متشددة، ولد سنة 1850م درس في جامعات أوروبا المتنوعة، وتخصص في علم الفيزيولوجيا، هاجر إلى الشرق فأقام بالقاهرة وسوريا وفلسطين، ثم رجع إلى مدينة بودابست، ومكث فيها حتى مات سنة 1921 انتخب عضوًا مراسلاً للأكاديمية المجرية سنة 1871، ثم عضوًا عاملاً 1892 وأستاذًا للغات السامية، من مؤلفاته: دراسات إسلامية، اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين، مذاهب التفسير الإسلامي، موسوعة المستشرقين، عبد الرحمان بدوي، ص ص 197-202

21 مستشرق إنجليزي، ولد في الإسكندرية بمصر 1895م وتوفي في 22 أكتوبر 1971في أكسفورد تخصص في الساميات، وفي تدريس اللغة العربية في جامعتي لندن وأكسفورد وفي تحرير مقالات في دائرة المعارف الإسلامية، ثم صار مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد بأمريكا سنة 1957م وكان إنتاجه العالمي أدنى من شهرته، ومن أهمها: سلسلة مقالات في الأدب العربي، والاتجاهات الحديثة في الإسلام، وترجم إلى الإنجليزية، كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي وغيره، موسوعة المستشرقين عبد الرحمان بدوي، ص ص 174-175

وقد انصرفت أكثر الدراسات الاستشراقية الأولى للجانب الأدبي في القرآن إلى ما فيه من عناصر الشعر الأساسية من إيقاع وتوازن وفواصل وسجع وما إلى ذلك [22]، وذلك دفعًا إلى القول بأنّ القرآن الكريم إنتاج بشري بصياغة عربية لغوية خالصة.

وقد كانت أعمال المستشرقين ومؤلفاتهم حول القرآن الكريم متنوعة الأهداف والمقاصد، مختلفة الوسائل والآليات، مشحونة بخلفيات أيديولوجية[23] فكرية، ولغوية ألسنية، طبعتها بطابعها الخاص، وكيّفت قراءاتهم للقرآن على مقاييسها ومقاديرها وصلت بهم إلى حد تأويل المعاني والقواعد القطعية في نصوص القرآن والسنة بتمحلات ذاتية تؤرخ هذه النصوص، وتقرر بأنّها نتاج للظروف المتنوعة التي أسهمت في تشكيلها.

وإنّ من أهم أهداف هذه الأعمال والمؤلفات تشويه صورة الإسلام ومصادره النقية، وهويته الحضارية وذلك كما قال مصطفى السباعي: «لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرف على الدافع الأول للاستشراق عند الغربيين وهو الدافع الديني»[24].

ولاحظ ذلك أيضًا إدوارد سعيد بقوله: «إنّ الاستشراق السامي والاستشراق الإسلامي لم يكونا قد حررا نفسيهما إلا إلى درجة ضئيلة جدًا من إسار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلاً»[25].

فهناك تناسق بين الاستشراق والتبشير والاستعمار[26] الذي هو وسيلة ميدانية لفرض هذه الأيديولوجيات بالقوة، وفي ذلك يقول محمد البهي: «ومن جهة نظر أخرى رغب النصارى في نشر دينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق... والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف المستعمرين»[27].

---

22 مذاهب التفسير الإسلامي: إجنتس جولد تسيهر، دار اقرأ، بيروت، ط2، 1983م، ص93 وكتاب العقيدة والشريعة في الإسلام للمؤلف نفسه، دار الكتاب الحديثة بمصر، ط2، 1959، ص 12

23 يراجع مثلاً، القراءة الأدبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي: الحسن بوتنبيا، ص 29

24 ظهر هنا المصطلح «أيديولوجيا» أول مرة عام 1796 في فرنسا على يد «دوتراسي» الذي أصدر كتابًا له بهذا العنوان سنة 1801 ومعناها القريب هو علم الأفكار أو فن البحث في الأفكار والتصورات، كما أطلقه الماركسيون على النظرية أو المذهب الديني أو العلمي الذي يبنى على الوعي الذاتي السطحي ثم يتحول إلى أغلوطة مناقضة للدين والعلم، ثم وظف هذا المصطلح حديثًا على القواعد المختمرة لدى فرد أو جماعة تحقق لها رغباتها في الحاضر، وطموحاتها المستقبلية سواء ارتكزت على فكر ديني أو غيره: الاستشراق وجه الاستعمار الفكري: عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1995م، ص ص 51-52

25 الاستشراق والمستشرقين مالهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ص 20

26 الاستشراق: إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العلمية، ص 265

27 يراجع: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير، الاستشراق، الاستعمار: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق ط8، 2000م، ص 13 وما بعدها

غير أنّ تلك الدرجة الضئيلة ـ التي أشار إليها إدوارد سعيد ـ هي التي تعكس الدافع العلمي المتمثل في «حب الاطلاع والبحث والتمحيص على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها»[28].

وما أكثر هؤلاء المستشرقين أصحاب النظرات الموضوعية المتزنة، كالمستشرق «**ريتشارد سيمون**»[29] والمستشرق الألماني «**يوهان ـ ج ـ رايسكة**»[30]، ومنهم من أدى به البحث العلمي النزيه إلى اعتناق الإسلام، وهم أكثر من أن يحصوا في هذا الموضع بالذات[31].

وإذا ما رجعنا إلى القراءة التاريخية للنصوص الدينية والأدبية نجد أنّها تقوم على مجموعة من القواعد الأيديولوجية التأويلية والألسنية العامة؛ فمنها مقوم عدم البراءة في القراءة؛ إذ أنّ المؤول ينطلق ـ من حيث يشعر أولا يشعر ـ من ثقافته الخاصة ومنهجه الأثير، وذلك ما يؤدي إلى استبدال المعرفة اليقينية القاطعة بافتراضات ضمنية، وإلى تولد النصوص وتساويها فيما بينها، وإلى انهيار الثوابت الموضوعية وبداية دوار العبثية ولا نهاية القراءات[32].

ينتج عن هذا مقوم آخر يتمثل في تقرير موت المؤلف وتأليه القارئ بذلك، ومن هنا استعان المستشرقون بالاتجاه النقدي التفكيكي النازع إلى تحرير النص من سلطة مؤلفه، وإحلال أفق القارئ وتأويله الذاتي محل مقاصد المؤلف، الأمر الذي يدعو إلى توظيف المناهج الغربية ـ ثقافة المستشرقين ـ بدل الضوابط المنهجية العلمية والقواعد الأصولية اللغوية القرآنية، مما يحرر القارئ منها، وينفي بذلك مقاصد المؤلف ـ ولو كانت قطعية ـ فلا شيء يمكن أن يحقق تلك المقاصد وإنّما هو كما قالوا «**وهم القصدية**» و«**خرافية القصدية**»[33].

ثم من أهم مقومات القراءة التاريخية للنصوص الدينية ـ خاصة القرآن ـ عند المستشرقين والغربيين القول بتداخلها مع نصوص أخرى موازية لها، وهو ما يعرف في المناهج الألسنية المعاصرة «بالتناص»

---

28 الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي، ص 43 نقلاً عن كتاب: الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق: عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص95

29 نور الإسلام وأباطيل الاستشراق: فاطمة هدى، دار الإيمان، طرابلس، لبنان، ط 1، 1993، ص 71

30 مستشرق وراهب فرنسي مفسر للكتاب المقدس، ومتخصص في العلوم العبرية، طرد من الرهبنة بسبب دراسته النقدية للكتاب المقدس الذي نشر سنة 1678، توفي سنة 1712م، موسوعة المستشرقين: عبد الرحمان بدوي، ص 296

31 مستشرق ألماني (1716-1774)، عالم باليونانيات، أتقن تعلم اللغة العربية بطريقة عصامية غير نظامية، وكان يحضر محاضرات متخصصة في ذلك في جامعات غربية، تحول إلى دراسة الطب وحصل على الدكتوراه سنة 1746 ولكنه أستمر في دراسة الأكاديمية للعربية، وتبنى في ذلك مواقف معتدلة ألبت عليه اللاهوتيين والغربيين عموما، ونشر مقالات ومؤلفات وتراجم كتب عربية كثيرة من أهمها: ترجمة «لامية العجم» للطغرائي سنة 1956، موسوعة المستشرقين، عبد الرحمان بدوي، ص ص 298-303

32 يراجع مثلاً كتاب، نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر: لخضر شايب، مكتبة العبيكان، د.ت، ص 151 وما بعدها.

33 النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبير: قطب الريسوني، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، المملكة المغربية، ط1، 2010، ص 264

أو «التعالق النصي»[34] أي: أنّ النص ـ أياً كان ـ ليس بنية مغلقة ومنكفئة على نفسها، ولكنها تحمل بصمات نصوص أخرى تسهم في تشكيلها وفي ذلك يقول رولان بارت: «النص مصنوع من كتابات مضاعفة، وهو نتيجة لثقافات متعددة تدخل كلها بعضها مع بعض في حوار ومحاكاة ساخرة وتعارض ولكن ثمة مكان تجتمع فيه هذه التعددية وهذا المكان ليس الكاتب كما قيل إلى الوقت الحاضر، إنّه القارئ»[35] وهذا ما أوحى ـ بعد ذلك كما سنعرف ـ إلى المستشرقين بالجزم بالتداخل والتلاحق في النص القرآني ونصوص العهد القديم أو الحديث، ثم تجاوز هذا إلى النصوص البشرية، قصد التسوية بينها وبين النصوص القرآنية.

وأزمة المنهج الاستشراقي هنا تعميم توظيف المناهج والعلوم الغربية على النص القرآني، على الرغم من أنّها أسيرة بيئتها ومناخاتها الدينية والثقافية والإيديولوجية الخاصة بها، وإهمال أو جهل إجراءات المنهجية اللغوية والفكرية الأصولية الخاصة به.

وهذا التحامل الحاقد على القرآن، والخلط بينه وبين التراث الإسلامي أو ما يسمى «بالفكر الإسلامي» أو «التفسيرات الإسلامية» بتعبير المستشرقين أنفسهم[36] هو الذي قادهم إلى استنتاج مسلمات لا دليل عليها في تشكيل مقولات عقلية يخوّل لها أن تكون قطعية، ومن ذلك بيانهم أنّ القرآن الكريم نص لغوي أدبي مرهون بيئته وتأثيراتها المتنوعة[37] ثم تقويل النص ما لم يقله ـ بزعم نظرية القارئ النموذجي ـ يستنطق بذلك معاني النص ومقاصده بأيديولوجياته الجاهزة، مما ينتج عن ذلك تصورات مبتدعة من غير دليل قطعي عليها.

ومن آثار الأيديولوجيات هنا– عند المستشرقين – الانتقاء الاعتباطي للمناهج العلمية في قراءة النص القرآني ودراسته، حتى يوصله ذلك إلى النتائج المطلوبة المرسومة سلفًا، مما اضطر بعضهم إلى الاعتراف بهذا الخلط المنهجي غير المؤسس علميًا، وذلك في قوله: «... وإذا حدث أن كانت بعض آراء العلماء الغربيين غير معقولة عند المسلمين، فذلك لأنّ العلماء الغربيين لم يكونوا دائمًا مخلصين لمبادئهم العلمية، وأنّ آراءهم يجب إعادة النظر فيها».[38]

34 يراجع في هذا: من النص إلى الفعل، أبحاث في التأويل لبول ريكور، ص ص 129-292، والتأويل بين السيمائيات والتفكيك، إمبرتو إيكو، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000م، ص 43

35 هسهسة اللغة: رولان بارت، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1999، ص 83

36 المصدر نفسه.

37 يراجع: القرآن نزوله، تدوينه وتأثيره: ريجي بلاشير، مصدر سابق، ص106و ما بعدها

38 يراجع: القراءة الأدبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي، الحسن بوتبيا، ص 9 وما بعدها.

ومن ذلك - ما يتعلق بموضوعنا - الإفراط في توظيف المنهج التاريخي في دراستهم للنص القرآني القطعي وبيان المؤثرات الإنسانية والمادية عليه، «مع أنّ هذه العناصر المادية إن هي إلاّ عوامل للفكر وليست مصدرًا لموضوعاته»[39]

ولكنهم - على الرغم من ذلك - يقولون «و نحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن»[40]

المبحث الثاني: موضوعات العقيدة الإسلامية في الفترة المكية حسب قراءة بلاشير التاريخية

من الثابت يقينًا بالنصوص القرآنية والنبوية القاطعة، وبإجماع العلماء والدارسين قاطبة تميز الإسلام بتقرير عقيدة التوحيد وتوابعها الأساسية، وأنّ القرآن الكريم اهتم بمعالجة هذه القضايا العقائدية الكبرى التي شغلت العقول قديمًا وحديثًا: الألوهية، الوحي، والبعث، وذلك في جميع سوره المكية والمدنية.[41]

ولكن كيف قرأ بلاشير هذه القضايا العقائدية الكبرى؟ وما هي مصادره ومستنداته المعرفية والمنهجية في ذلك؟ وما هي أهدافه المبتغى تحقيقها من وراء ذلك؟

خصص بلاشير لذلك فصلاً في كتابه «القرآن» بعنوان «الرسالة القرآنية في مكة» حيث عرض فيه لأفكار متنوعة حول القرآن الكريم من ناحية مصدره، وصحته، وأسلوبه اللغوي، وقصصه المتنوعة خاصة عن أنبياء بني إسرائيل، ومعالجة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذه المرحلة المكية، وبيان علاقته مع القرآن، ومواقفه من حوادث بيئته وقومه، وشرح صفات الله تعالى، وقضية البعث والميعاد وغير ذلك[42]

39 هو قول للمستشرق واط مونتجمري في كتابه: محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت، ص 06، وينظر: الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده: محمود ماضي، دار الدعوة، الإسكندرية، ط1، 1996، ص 30

40 المستشرقون والسيرة: عماد الدين خليل، دار الثقافة، الدوحة، 1989م، د. ط، ص 6

41 الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي العصري، 1967م، ص 10

42 يراجع مثلاً، تفسير القرآن الكريم: محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ط12، 2004، ص ص 294-295، ومنهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام: جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة الإسكندرية، ط 3، 1993، ص 17، 237، 295، 405، والمدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع، القاهرة، ط 3، 1992م، ص 97

وقد بدأ معالجة هذا الفصل بقوله إنّ أسلوب القرآن المكي قد تنوعت صياغته طولاً وقصرًا، ضعفًا وقوةً تبعًا لقوة حضور اليوم الآخر وأهواله أو ضعفه في فكر النبي صلى الله عليه، وذلك إلى نوعين: الأول سور قصيرة وبسيطة الإيحاء (11سورة)، والثاني سور طويلة الآيات ومختلفة العناصر والأسلوب (22سورة)[43]

ثم نراه يعيد قراءة هذه العقائد الثلاث الكبرى قراءة تاريخية جديدة، وذلك أولاً بتتبع مسارها المرحلي، وتطور أفكارها الأساسية عبر ترتيبين أساسيين: الترتيب المصحفي العثماني، ثم الترتيب التاريخي للسور القرآنية لا وفق نزولها التاريخي المعتمد توقيفًا عند المسلمين[44] بل وفق الترتيب المختار عند المستشرق الألماني **نولدكه**[45] الذي أعلن صراحة عن فقدان ثقته بالروايات الإسلامية ـ في نظره ـ لأنّها متناقضة ومتعارضة، ولذلك انكفأ يصحح ذلك الترتيب، ويرد الكتابات التاريخية الصحيحة ما عدا اعتماده فقط على كتاب ابن إسحاق المتأخر وفاة[46] فجاء الترتيب الزمني عنده كالآتي:

1- السور المكية:

أ- سور الفترة المكية الأولى: العلق، المدثر، المسد، قريش، الكوثر، الهمزة، الماعون، التكاثر، الفيل، الليل، البلد، الشرح، الضحى، القدر، الطارق، الشمس، عبس، القلم، الأعلى، التين، العصر، البروج، المزمل، القارعة، الزلزلة، الانفطار، التكوير، النجم، الانشقاق، العاديات، النازعات، المرسلات، النبأ، الغاشية، الفجر، القيامة، المطففين، الحاقة، الذاريات، الطور، الواقعة، المعارج، الرحمان، الإخلاص، الكافرون، الفلق، الناس، الفاتحة.

ب- سور الفترة المكية الثانية: القمر، الصافات، نوح، الإنسان، الدخان، ق، طه، الشعراء، الحجر، مريم، ص، يس، الخرف، الجن، الملك، المؤمنون، الأنبياء، الفرقان، الإسراء، النمل، الكهف.

ج- سور الفترة المكية الثالثة: السجدة، فصلت، النحل، الروم، هود، إبراهيم، يوسف، غافر، القصص، الزمر، العنكبوت، لقمان، الشورى، يونس، سبأ، فاطر، الأعراف، الأحقاف، الأنعام، الرعد.

---

43 القرآن، نزوله تدوينه، ترجمته وتأثيره، ريجي بلاشير، ص ص 45-65

44 المصدر نفسه: ص ص 54-57

45 يراجع مثلا: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمود أبو الفضل إبراهيم / مكتبة دار التراث، القاهرة، 1957م، 244/1، الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تعليق مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د. ت، 194/2

46 تاريخ القرآن: تيودور نولدكه، تعديل شفالي، ترجمة جورج تامر وآخرون، دار النشر جورج ألمز نيويورك، ط4، 1938، 53/1 وما بعدها.

2- السور المدنية: البقرة، البينة، التغابن، الجمعة، الأنفال، محمد، آل عمران، الصف، الحديد، النساء، الطلاق، الحشر، الأحزاب، المنافقون، النور، المجادلة، الحج، الفتح، التحريم، الممتحنة، النصر، الحجرات، التوبة، المائدة[47].

والواقع هنا هو أنّ نولدكه «كان مقتنعًا بضرورة ترتيب القرآن زمنيًا على غير الطريقة الإسلامية، وقد رسم لنفسه منهجًا جديدًا تأثر به كثيرون، فأصبح موضوع هذا الترتيب يشغل أذهان المستشرقين جميعًا، ويعلقون عليه أخطر النتائج في عالم الدراسات القرآنية »[48].

وقد صرح بلاشير في كتابه «**القرآن**» بأنّه مدين لنولدكه في هذا الترتيب النزولي، مشككًا بذلك في صحة الروايات الإسلامية، واليقين في ذلك يتحقق باعتماد ترتيب نولدكه، إذ قال: «**وتدل التجربة فيما يبدو أنّ التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه نولدكه وأخذ به بعض المترجمين يجعل قراءة المصحف سهلة، بل ممتعة**»[49]

لنستمع إليه الآن كيف قرأ قضايا العقيدة الثلاث الكبرى قراءة سهلة وممتعة، ولنرَ هل صدق فيما قاله من قبل: «**وسنسعى في هذه المقدمة بجهد تجريدي لا ينكر جوره، أن نرد إلى القرآن ونقصر عليه في النظر في الوقائع التي من شأنها أن تبرز طابع هذا الكتاب الديني**»[50]

لقد قرر بلاشير أولاً أنّ هذه القضايا لم تعالج معًا في آن واحد بالقوة والدرجة نفسها، إذ بدأ بقضية البعث والميعاد، والتي ابتدأ النص القرآني نفسًا قويًا بمعالجتها ما جعلت النبي - صلى الله عليه سلم - في نظره «**تحت وطأة النداء الإلهي، يلازم خياله تصوره للكارثة الأرضية التي ستقضي على العالم، وتصوره للحساب الأخير**»[51] الذي سيوقع «**هلعًا عظيمًا سيصيب الآثمين والموسرين**»[52] وذلك في الآيات **8-14** من سورة المعارج، وسورة الزلزلة كاملة، ثم الآيات **15-29** من سورة الحاقة التي فصلت في الجزاء المرتقب للمعذبين والناجين[53].

---

47 المصدر نفسه: 351/1

48 المصدر نفسه: 53/1 وما بعدها

49 مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، 2009، ص 176

50 يراجع: القرآن: ريجي بلاشير، ص 21-44-11-45-46-47-48-49

51 المصدر نفسه، ص 62

52 المصدر نفسه، ص 49

53 المصدر نفسه، ص 51

ويبلغ الإيحاء هنا أمده بسرد صفات اليوم الآخر من أهوال وملذات كما في الآيات **(23-42)** من عبس، والآيات **(17-36)** من النبأ، والآيات **(1-56)** من الواقعة، والآيات **(17-27)** من الطور، وهنا تكتمل المجموعة الأولى عنده[54].

ثم يبدو ـ في نظره ـ أنّ هذه الحماسة قد أفلت، وأنّه حدث تطور في معالجة موضوعات جديدة؛ إذ لم ير ـ في نصوص المجموعة الثانية ـ إشارات واضحة إلى قضية البعث والميعاد إلا في الآيات **(24-26)** من سورة الرعد، على الرغم من أنّه قال عنها (المجموعة الأخيرة): «**إنّ المجادلة التي استمرت طوال الفترة الثالثة وجب أن تتناول مسألة البعث أكثر من أي فترة مضت**»[55]، ولكن ذلك كان مندرجًا ضمن اشتداد لهجة خصومة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضد الوثنيين، وأفول أمله في عودتهم إلى الهداية، وإعلان مقاطعته لهم.

فإذا ما انتقلنا إلى القضية الثانية، قضية التوحيد والعبادة (القضية الأولى في جميع الديانات والفلسفات الإنسانية)، وجدنا كذلك بلاشير يجزم أنّه حدث تطور في معالجة هذه القضية؛ إذ تكشف كثرة التذكير بصفات القدرة والرحمة الإلهية في خلقه ونعمه ـ في نظر بلاشير ـ ما يكفي من «**دلالة على الأهمية التي يتخذها في عمل محمد النضالي**»[56].

يرد ذلك في سورة الرحمان، وفي الآيات (05-10) من سورة الليل التي تؤكد ـ في نظره ـ على واجب الإحسان تجاه نعم الله، وتشجب بالمقابل الغنى الفاحش، والحالة الميسورة للبشر.

ولم تركز نصوص الفترة الأولى على قضية وحدانية الله في نظر بلاشير؛ إذ قررت أنّ القرآن كلام الله كما في الآيات **(29-30)** من الطور، والآيات **(01-18) من النجم، والآيات (02-06/51-53)** من القلم، ثم لم تقرر عقيدة التوحيد بجلاء إلا في سورة الإخلاص **(أواخر الفترة الأولى)**.

أما قبل ذلك فإنّما يبدو ـ حسب قول بلاشير ـ «**أنّ سورة النجم (19-25) تحتوي على آثار تردد في شجب عبادة ثلاث من ربات المكيين، لكنما النص في وضعه الحالي ظل يحتمل تصحيحًا تخمينيًا**»[57]، وهو يشير هنا إلى ما يشاع في بعض كتب السير والتفسير من قصة الغرانيق المختلقة في سجود الكفار مع

54 يراجع مثلاً: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق حامد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط1، 2002، 3/388-389

55 القرآن: بلاشير، مصدر سابق، ص 53

56 المصدر نفسه، ص 55

57 المصدر نفسه، ص 64

النبي صلى الله عليه وسلم حينما امتدح آلهتهم وتلا في ذلك جملتين: «**تلك الغرانيق العلى. وإنّ شفاعتهن لترتجى**»[58]

وأما المجموعة الثانية، فقد بدأ يتشكّل - من خلال بعض نصوصها - مفهوم عبادة الله عز وجل من غير تفصيل - عند بلاشير-، فلم يرد من هذه النصوص إلا الآيات **(1-4/10-13)** من سورة المزمل في صلاة إحياء الليل بأدعية خاصة، سوغت - عنده - بعد ذلك لخمس صلوات أو ابتهالات بمعنى خمس سور كما نص عليه[59]، ثم أكدت سورة الفاتحة هذا التعبد الإجمالي في المرحلة المكية الأولى.

غير أنّ نصوص الفترة الثانية تشرع بتفصيل صفات جديدة لله تعالى، ومعان إضافية للعبادة؛ إذ تبيّن هنا – في نظر بلاشير– كثرة استعمال اسم «**الرحمان**» إلى جانب أسماء أخرى كما في الآيات **(9-13)** من الزخرف والآيات **(33-44)** من يس، والآيات **(81-90)** من المؤمنون التي تتأكد فيها عقيدة التوحيد الإلهي كما قال بلاشير[60].

وتستمر بعد ذلك وتيرة بيان صفات القدرة والرحمة الإلهية كما في الآيات **(2-4)** من الرعد بأسلوب وعظي مكرر يؤدي «**دورًا ضد المشركين الذين لم يشعروا بعظمة الله الواحد الخالق، ودورًا مع المؤمنين الذين عرفوا أن يستخرجوا من اليقين عبرة**»[61]

وأما العبادة فقد أخذت تنتظم -عنده- دون أن تتخذ مع ذلك دقتها النهائية كما في الآيات **(78-79)** من سورة الإسراء.

بقي هنا معالجة القضية الثالثة وهي مسألة النبوة ومهامها التبشيرية والإنذارية ومتعلقاتها، والتي يبدو أنّها نالت حصة الأسد في فكر بلاشير هنا - لغايات أيديولوجية -؛ إذ رأى أنّ نصوص المرحلة المكية قد كثفت معالجتها بدءًا من التذكير بمهمة النبي - صلى الله عليه وسلم - تجاه قومه وهي مهمة الإنذار أكثر في الآيات **(94 - 95)**من الكهف، وبلهجة جدل جديدة في الآيات **(81 – 90)** من المؤمنون، ولكنها كانت معالجة مشتتة، وتذكيرًا غير متكامل إلا من خلال نصوص الفترة الثانية عنده - التي برزت فيها قصص - أو بتعبير بلاشير-: «**أساطير معروفة في الجزيرة العربية**»[62] اعتمد عليها النبي - صلى الله عليه وسلم - في تقوية دعوة التبشير والإنذار معًا؛ إذ أنّ هذه القصص تنبئ عن أسماء قليلة **(قوم نوح، عاد، ثمود، قوم لوط،**

58 المصدر نفسه، ص 55

59 المصدر نفسه، ص 64

60 المصدر نفسه، ص 60

61 المصدر نفسه، ص 45-50- 55-56-58-59-60-62-55-65

62 القراءة الأدبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي، الحسن بوتبيا، ص 26

المصريون وموسى ومريم وعيسى وغير ذلك) بأسلوب إيحائي أكثر منه وصفيًا، ثم بتركيز بعد ذلك على شخصية إبراهيم ـ عليه السلام ـ أكثر من ذي قبل، مصطدمًا أولاً بزيغ والده نفسه كما في الآيات **(41 – 50)** من مريم، والآيات **(26 – 39)** من الزخرف ثم مؤسسًا للحنيفة ومؤسسًا أيضًا لبناء الكعبة بعد ذلك كما في الآيات **(40 – 42)**من إبراهيم، على الرغم من أنّ شخصيته لم تكتمل إلا في المرحلة المدنية[63].

وتتوالى في نصوص المجموعة الثانية تترا بتفصيل قصص الأنبياء، ثم بإيجازها مرة تالية، مرتبطة بظروفها البيئية، ومتناسبة مع حجم اشتداد صراع النبي _ صلى الله عليه وسلم_ ضد الوثنيين، وتلك إشارة_ في نظر بلاشير_ إلى تحديد سلسلة الرسالات السماوية المنتهية بذكر محمد _ صلى الله عليه وسلم _كما في الآيات **(84 – 90)** من سورة الأنعام، كما لا يزال تهديد النبي _ صلى الله عليه وسلم _ لقومه مستمرًا هنا كما في الآيات **(84 – 90)** من الأحقاف، والآيات **(3 – 7)** من الزمر.

ويشير بلاشير _ أخيرًا_ هنا إلى تنوع أسلوب المجموعتين بما يظهر التناسب مع موضوعاتها المعالجة، بقوله: «**كم يزيد الاختلاف بين الأسلوب المتقطع الذي يتخلله الوميض والقسم واستحضار الأخرويات وهو خاص ببداية التبشير، وبين الصيغة الخطابية المسهبة المفعمة بالاعتراضات**»[64]

لقد كان بلاشير حريصًا على قراءة هذه الموضوعات قراءة تاريخية ببيان تأثيرات البيئة والظروف المحلية المرتبطة بها، وبإظهار عناصرها الثلاثة: **الزمان، البيئة، والذات (هي محمد** _ صلى الله عليه وسلم _ **عند بلاشير)** وملاحظة التطور والتغير الحاصل في معالجتها تبعًا لأثر البيئة في نفسية النبي_ صلى الله عليه وسلم _، مما دفعه إلى التجديد حتى في تغير أسلوب الخطاب إلى عبارة «**أيها الناس**» للدلالة إلى تغير وجهته إلى العالمية بدلاً من الإقليمية[65]

ولنتأمل جيدًا في عبارات بلاشير الدالة على ذلك، وعلى التلاحم بين ذات النبي _ صلى الله عليه وسلم _ والخطاب القرآني فمن ذلك قوله: «**كان محمد مضطربًا مترددًا في قواه قريبًا إلى اليأس أمر ضخامة رسالته**» وقوله «**تظهر أحوال الصراع الناشب بين محمد والوثنين المكيين**» وقوله «**بقدر ما كانت تزداد عداوة المشركين في وجه محمد كان هذا الموضوع يشتد حماسة... كانت ترجع إلى قصص أو أساطير معروفة في الجزيرة العربية**» وقوله «..**موضوع النبي المبشر في الصحراء كما نرى بالاستناد إلى قصص قومية وإلى قصص مأخوذة من التوراة... والقرآن يتبع عن كثب الديانة التوراتية عامة**» وقوله «**وفي**

63 يراجع، أسباب النزول، علي الواحدي، تعليق شريف عبد الرحمان، دار الفتوى للتراث، القاهرة، د. ط، د.ت، ص 219

64 يراجع تفصيل في هذا الباب كتاب: مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار القلم، الكويت، ط 5 2003، ص 133-156

65 يراجع مثلا، الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي 201/1-203، وكتاب الوحدة التاريخية للسور القرآنية: عمران سميح نزال، دار القراءة، عمان، ط1، 2006 ص 52

الآيات من الخامسة وما فوق تهديد نتج عن إضافة لاحقة؛ إذ هي معاصرة للانقطاع عن اليهود المدنيين الذي جرى في سنة 624 م» وقوله «**لقد أصبح نبي المسلمين منذ الآن يختلف كل الاختلاف عن ذلك الوضع الذي عرفه خلال الأربع أو الخمس السنوات الأولى من دعوته...ثم إنّ المدينة... لم تصم آذانها عن دعوة النبي الجديد فكان من الطبيعي أن ينظم التبشير القرآني مع هذا العالم الذي أخذ ينفتح له»** وقوله عن رسالة القرآن إنّها تحولت إلى عالم البدو وليس إلى العالمين بتعبير القرآن الكريم.

ومن ذلك أيضًا قوله «**مستوحًى من تجربة نبي المسلمين نفسها**» وعن رسالة الدعوة إنّها «**أنتجته الظروف**» وتميزت بـ «**مواقف قد تعدلت**» «**و لم نجد له من قبل صفة التبشير إلا معالجة مشتتة**» وإنّ التفصيل في بيان شخصية إبراهيم - عليه السلام - الحنيفية سمحت باكتشاف «**صيغة توفيق بين إسرائيل والعالم الإسلامي**» إلى غير ذلك من النصوص الصريحة[66]، والمعالجات القاطعة بأنّ القرآن الكريم – في نظر المستشرقين – نص لغوي أدبي جاهلي، اكتتبه الرسول صلى الله عليه وسلم من أسفار المتقدمين وكساه من سحر بلاغته، فملك به قلوب العرب[67] بأفكار وموضوعات وأساليب معروف في تلك البيئة.

المبحث الثالث: ضوابط القراءة الراشدة لموضوعات العقيدة الإسلامية في الفترة المكية القرآنية

لقد خرمت قراءة بلاشير هنا النص القرآني المكي بمعالمه الواضحة، وانسلت من ضوابط القراءة الموضوعية الصحيحة له وأحلت مكانها ثقافة بلاشير وأيديولوجياته بدلاً منها، وبالتالي وصلت إلى تحقيق نتائج خطيرة في مجال مصدر القرآن وأفكاره وأساليب معالجته وعلاقته بالرسل والأنبياء.

ما لوحظ عليه أولاً إخلاله بضابط الأمانة والحياد والموضوعية في قراءة النص القرآني وفي تقرير الحقائق العلمية والواقعية؛ فقد قرر مثلاً أنّ القصص المشحونة في نصوص المجموعة الثانية المكية ما هي إلا «**أساطير معروفة في الجزيرة العربية**» وأنّها «**مأخوذة من قصص التوراة**»، وهو يعلم وغيره من المستشرقين أنّ العرب آنذاك القريبين إلى مكة خاصة كانت لا تعلم بها وأنّها كانت مختصة باليهود فقط، أو من بعض الأجناس البعيدة، كالفرس الذين ثبت أنّ النضر بن الحارث القرشي كان أن هاجر إليهم وتعلم منهم أساطيرهم، ثم عارض بها القرآن حتى نزل فيه قوله تعالى «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**» [لقمان/ 06][68]

66 القرآن: بلاشير، ص 60

67 يراجع مثلاً: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص 110. وكتاب منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام، جمعة أمين عبد العزيز، ص ص 53-93

68 يراجع تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، دار الفكر بيروت، لبنان، ط.ت، ص 416، والتفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة مصعب بن عمر، 2004، 1/ 61

ثم إنّ كثيرًا من علمائنا من ردوا شبهة اقتباس القرآن من نصوص التوراة أو الإنجيل أو حتى من أفكار إنسانية أخرى كانت منتشرة في ذلك الزمان؛ فليس هناك روايات صحيحة تثبت اتصال النبي صلى الله عليه وسلم بأوساط مسيحية أو يهودية، فيما قبل هجرته إلى المدينة المنورة، وتثبت أهليته للكتابة أو تعلمه لثقافات متنوعة، فلم توجد نصوص عربية في ذلك الزمان، وأفكار دينية سائدة في بيئة قريش، وإنّما هي المقارضات الشعرية فقط في أسواق العرب المعروفة قديمًا.[69]

ومن هذا الباب تعمد إخفاء النصوص القرآنية ودلالتها الواضحة والقاطعة على أولوية هذه العقائدية الكبرى ضمن الخطاب القرآني في جميع سوره حتى المدنية منها، -و هذا ما سنح له تشكيل قراءة مؤدلجة، وإنتاج أحكام خطيرة تمس قدسية النص القرآني، فمن ذلك على سبيل المثال أنّه أورد الآيات (81.90) من سورة المؤمنون، -ذاكرًا لها دون سردها – كملمح على اشتداد الصراع بين النبي صلى الله عليه وسلم – وبين خصومه، ولكن من قرأها قراءة حرفية تيقن أنّها تؤصل لحجج عقلية وواقعية قوية في إثبات الوحدانية والبعث والمعاد.

واستدل أيضًا بالآيتين (94-95) من سورة الكهف على بيان مهمة الإنذار النبي صلى الله عليه وسلم والأمر ليس كذلك، بل هما في قصة ذي القرنين.

ومن ضوابط القراءة الصحيحة هنا قواعد تحقيق المفردة القرآنية وفق الدلالة المعجمية، أو حسب الاستعمال القرآني ثم الالتزام بالاستقراء التام والانضباط بالسياق القرآني لتلك الموضوعات، والتقيد بضوابطه المهمة -و في مقدمتها الضابط اللغوي والنقلي الصحيح -، إذ واضح جدًا من عمل بلاشير أنّه لا يلتزم بصحة الروايات ولا بتحقيق المناط الصحيح وأثره في نزول الآية، فمن الأول اتباعه للترتيب النزولي للسور الذي ارتضاه نولدكه بدلاً من الترتيب النزولي التوقيفي الثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم من رواية جابر بن زيد المثبتة لسوره المكية دون فترات، وكذلك السور المدنية، فأما السور المكية فترتيبها كالآتي: العلق، القلم، المزمل، المدثر، الفاتحة، تبت يدا أبي لهب، التكوير، الأعلى، الليل، الفجر، الضحى، الشرح العصر، العاديات، الكوثر، التكاثر، الماعون، الكافرون، الفيل، الفلق، الناس، الإخلاص، النجم، عبس، القدر، الشمس، البروج، التين، قريش، القارعة، القيامة، الهمزة، المرسلات، ق، البلد، طارق، القمر، ص، الأعراف، الجن، يس، الفرقان، فاطر، مريم، طه، الواقعة، الشعراء، النمل، القصص، الإسراء، يونس، هود، يوسف، الحجر، الأنعام، الصافات، لقمان، سبأ، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، الذاريات، الغاشية، الكهف، النمل، نوح، الأنبياء، المؤمنون، السجدة، الطور، الملك، الحاقة، المعارج، نبأ، النازعات، الانفطار، الروم، العنكبوت، المطففين.

---

69 يراجع مثلاً، مقدمة محمود شاكر على كتاب الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ترجمة عبد الصبور شاهين، 2000، ص 24

أما السور المدنية فرتبت كالآتي: البقرة، الأنفال، آل عمران، الأحزاب، الممتحنة، النساء، الزلزلة، الحديد، محمد، الرعد، الرحمان، الإنسان، الطلاق، البينة، الحشر، النور، الحج، المنافقون، المجادلة، الحجرات، التحريم، التغابن، الصف، الجمعة، الفتح، المائدة، التوبة، النصر[70]

فاعتماده على ترتيب ملفق دفع به - بأيديولوجياته - إلى تأخير السور المكية الأولى المصرحة بوحدانية الله وحقيقة النبوة واليوم الآخر وذلك كسور العلق والمدثر والفاتحة والأعلى والكافرون، وغيرها من السور المكية وحتى المدنية التي أجلت هذه المسألة بوضوح من أول يوم من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه القضايا دون فصل بينها جنبًا إلى جنب، وهذا ما لم يستطع بلاشير أن يرده في أصله إلاّ بإفراط تأويلي لفروعه ومسمياته، وذلك في قوله: «**لقد كان من الطبيعي أن نجد التلاحم في معالجة موضوعات التبشير، وهذا التلاحم يرتبط بتغيير بسيط أنتجته الظروف**»[71]

وحتى أنّه لو استحضرنا أنّ التصريح بالوحدانية تحقق في سورة الإخلاص، فإنّها وفق هذا الترتيب التوقيفي الصحيح السورة الثانية والعشرون نزولاً قبل سورة النجم مباشرة، مما يقطع القول بالدعوة إلى التوحيد في العهد الأول المكي، وأنّ هذا الاقتران بين سورتي الإخلاص والنجم بهذا التتابع يوحي بطريقة القرآن في إثبات العقيدة الصحيحة وإرداف ذلك بتحطيم أوهام الشرك والوثنية[72]

وحتى أنّه اعتمد في هذا الصدد على رواية الغرانيق المكذوبة، الباطلة سندًا ومتنًا، والتي لم تثبت حتى نقلاً عن صحابي واحد قط، إضافة إلى تضمنها رجالاً كذابين في كل أسانيدها، كحال رواية محمد بن السائب الكلبي المعروفة في كتب الجرح والتعديل[73]

وما يقال عن التوحيد هنا ينطبق على قضية النبوة ومهامها والبعث والمعاد، فإنّ القرآن الكريم منذ بداية السورة الأولى حرص على الفصل التام بين حقيقة الوحي وحقيقة النبوة التي هي فرع منبثق عن الوحي، وذلك كما في سور: العلق، المدثر، المزمل، القلم، الكافرون وما إلى ذلك، كما رسمت أيضًا سلم دعوته بدءًا بمرحلة التبشير ثم التذكير ثم التخويف ثم الإنذار والتهديد، ولم تثبت المقاطعة إلا بعد الوحي إليه بالهجرة إلى المدينة المنورة، وهذه سياسة حكيمة وبليغة في الدعوة إلى الله، وليست متطورة حسب البيئة والأجناس الجديدة الطارئة في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم –[74].

---

70 المستشرقون والقرآن دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآراؤهم فيه: إبراهيم العوضي، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ط1، 2003م، ص 67

71 القرآن والقصص: محمد البشير النيفر، مطبعة شمال إفريقيا، ط1، د. ت، ص 07

72 القرآن: بلاشير، ص 60

73 يراجع كتاب، لا يأتيه الباطل: محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007، ص 24

74 مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص ص 176-177

وكذلك عالج القرآن قصص الأنبياء في السورة الأولى في زمن لم يعرف فيه اتصال النبي –صلى الله عليه وسلم –بمصدر بشري أو غيره ينبئه عن ماهية هذه القصص، ويرسم له – وللدعاة ما بعده – الدروس والعبر منها، بخلاف قصص التوراة المغرقة بسرد الأحداث: «فالبقرة في القرآن صفراء فاقع لونها وهي في العهد القديم قصد به إحراقها بعد ذلك وجمع رمادها وخلطه بماء يستعمله اليهود للتطهير من النجاسات»[75]، فأين التوازي كما زعمه بلاشير، ثم إنّه قد وقع في التناقض المنهجي في زعمه أنّ القصة القرآنية آلت فيما بعد إلى الإيجاز؛ إذ لا جدوى - في نظره - من تكرر المشاهد السالفة، وقد نسي أنّه ليس هناك تكرار وأنّ التفصيل والإجمال موزع على جميع سور القرآن – بما فيها المدنية – وفق القاعدة العلمية «إذا كان السبق للإجمال فللتفصيل من بعده الموقع المكي، وإذا كان السبق للتفصيل فللإجمال من بعد التذكير المفيد»[76].

ومن تناقضاته هنا مخالفته لترتيب نولدكه الزمني، إذ اعتمد بلاشير مجموعتين بدلاً من ثلاث كما هي عند نولدكه معللاً ذلك بأنّه لا «**تجديد أساسي لا في الموضوعات ولا حتى في طريقة معالجتها**»[77] ولو تأمل جيّدًا لوجد أنّ التلاحم والتداخل مزية خاصة للقرآن[78] وقد وصف محاولة ويل سنة 1872 بأنّها «**الطريقة الوحيدة المثمرة حقًا**» ثم اعترف بأنّها طريقة لا تخلو من تعنيف في إطلاق الأحكام[79].

كما يظهر جهله بقواعد اللغة وأساليب البيان وإطلاقات العرب لمعاني الكلمة القرآنية، إذ جهل أنّ المميزات الأسلوبية للفترة المكية واحدة متقاربة الأبنية والفواصل والإيقاعات تحقق في ذلك تناسبًا مع موضوعاتها العقائدية والأخلاقية والجدلية[80].

فضلاً عن أنّ العرب لم تعرف إطلاقًا - في كل لهجاتها وسياقات كلامها - أنّ خمسة سور بمعنى خمسة صلوات أو ابتهالات، إذ السورة تدل - حسب المعاجم - على الرفعة وبقية الشيء.

ثم إنّه قد عول كثيرًا على الترتيب المصحفي، إذ يذكر السور بأرقامها المصحفية، وهو يوحي بسياسة التناقض، والتجزئة، والاختزال، والقص واللصق التي انتهجها بلاشير لفصل النصوص بعضها عن بعض.

---

75 يراجع، علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه: عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981، ص 135 وما بعدها

76 يراجع، معجم مقاييس اللغة، : أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1991، مادة سور، 115/3، والمفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق، محمد خليل عشياني، دار المعرفة بيروت ط4، 2005، ص 255

77 أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره: محمد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط 1، 2009م، ص18

78 يراجع مثلاً: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط1، 1986م، ص312-309 وغير ذلك.

79 مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، مقال بعنوان، القرآن والمستشرقون، التهامي نقرة، مكتب التربية العربي لدول الخليج، د. ت، 31/1

80 نبوة محمد في الفكر الغربي المعاصر: لخضر شايب، ص 23

إنّ أصل هذه القضايا العقائدية هي قضية الألوهية والوحدانية، وذلك من أول المصحف في سورة الفاتحة وانتهاء بآخره سورة الناس، فضلاً عن السور المكية التي عالجت هذه القضايا تأسيسًا وابتداءً أو السور المدنية التي عالجتها تذكيرًا وانتهاءً.

خاتـــمة:

ويمكن أخيرًا سرد نتائج البحث في النقاط التالية:

1. تعد القراءة التاريخية من أخطر القراءات الغربية مساسًا بقدسية النص القرآني، ونقضًا لمعانيه القاطعة وقضاياه الكبرى، وتصييره نصًا بشريًا لغويًا أدبيًا صاغته حوادث الزمن، ونسجته ظروف البيئة، وبرزت من خلاله شخصية النبي - صلى الله عليه وسلم - في نظر المستشرقين - كمصلح اجتماعي، وبليغ وفصيح ملك قلوب العرب، وسحرهم ببيانه، أي: أنّ مآل هذه القراءة هو نفي ربانية القرآن الكريم، وسلبه صفة الصلاحية لكل زمان ومكان.

2. رأينا أيضًا أنّ هذه القراءات الاستشراقية غلفت بمقومات أيديولوجية مسبقة، ومناهج ألسنية مؤسسة حررت النص من معان ثابتة مقصودة للمؤلف، وجعلته رهينًا لثقافة القارئ وإسقاطاته المؤدلجة، تحت عناوين القارئ النموذجي أو الضمني أو موت المؤلف، وتناص النصوص، مما يدفعنا إلى التساؤل المنهجي عن براءة هذه المناهج الألسنية وكمالها، وصلتها بالأيديولوجية الغربية؛ كمقولة موت الإله عند نيتشه وغيره، وعن مدى صلاحيتها للنصوص التراثية المختلفة عنها لغةً ودوافع ونسيجًا ومقاصد، وهو ما يترك هنا توصية للدارسين بعقد مؤتمرات وملتقيات وندوات علمية لفحص هذه القضايا المنهجية والعلمية.

3. تظهر هنا أهمية تحكيم الضوابط اللغوية والسياقية، والمقاصدية للقراءات التأويلية لأي نص ما -وفي مقدمتها القرآن الكريم - وذلك كاعتماد الروايات الصحيحة، وتحقيق التكامل بين المناهج التراثية والمناهج العلمية الحديثة بما يتوافق مع مقاصد القرآن الكريم، ويسنح بتفجير دلالي في فروع القرآن ومعانيه المحتملة، «إذ بدون ذلك يتحول البحث عن المعرفة إلى فوضى لا تخدم الهدف الذي ينشده الباحث» وذلك كحال صفات الله تعالى المذكورة في أغلب النصوص المكية والمدنية.

4. وأخيرًا فإنّنا نوصي الدارسين هنا بالتعمق في دارسة نتاج المستشرقين وغيرهم، وسحب الأحكام المستعجلة الجزافية عنهم إلا ما توافق مع ميزان البحث العلمي، إذ يجب إعادة النظر في أنّ بلاشير -مثلاً - من المعتدلين في أحكامه على القرآن أو حتى من المستشرقين الذاتيين الذين لم تظهر عداوتهم وقراءاتهم الحاقدة، بل العكس هو الصحيح هنا، والحمد لله رب العالمين.

قائمة أهم المصادر والمراجع:

1- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تعليق مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د. ت.

2- آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره «دراسة ونقد»: عمر بن إبراهيم رضوان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1992

3- أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره: محمد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط 1، 2009

4- أسباب النزول، علي الواحدي، تعليق شريف عبد الرحمان، دار الفتوى للتراث، القاهرة، د. ط، د.ت.

5- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير، الاستشراق، الاستعمار: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق ط8، 2000م.

6- الاستشراق وجه الاستعمار الفكري: عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1995م.

7- الاستشراق: إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العلمية، د.ت.

8- تاريخ القرآن: تيودور نولدكه، تعديل شفالي، ترجمة جورج تامر وآخرون، دار النشر جورج ألمز نيويورك، ط4، 1938

9- التأويل بين السيمائيات والتفكيك، إمبرتو إيكو، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000م.

10- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، دار الفكر بيروت، لبنان، ط.ت.

11- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة مصعب بن عمر، 2004

12- تفسير القرآن الكريم: محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ط12، 2004

13- الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي العصري، 1967م.

14- الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ترجمة عبد الصبور شاهين، 2000

15- علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه: عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981

16- في الأدب والنقد: محمد مندور، دار النهضة مصر، القاهرة، د.ت.

17- القراءة الأدبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي: الحسن بوتنبيا، المطبعة الورقية الوطنية مراكش، المغرب، ط1، 2010

18- القرآن الكريم في المنظور الاستشراقي: محمد محمد أبو ليلة: دار النشر للجامعات، مصر، ط1، 2002م.

19- القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره: ريجي بلاشير، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1974.

20- القرآن والقصص: محمد البشير النيفر، مطبعة شمال إفريقيا، ط1، د. ت.

21- المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع، القاهرة، ط 3، 1992م.

22- مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار القلم، الكويت، ط 5، 2003

23- مذاهب التفسير الإسلامي: إجنتس جولد تسيهر، دار اقرأ، بيروت، ط2، 1983م.

24- المستشرقون والسيرة: عماد الدين خليل، دار الثقافة، الدوحة، 1989م، د. ط.

25- المستشرقون والقرآن دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآراؤهم فيه: إبراهيم العوضي، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ط1، 2003م.

26- المعجم الفلسفي: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مكتبة المدرسة، بيروت، 1982

27- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط1، 1986م.

28- مقاييس اللغة، : أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1991

29- مناهج النقد الأدبي: يوسف وغليسي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر ط 1، 2007م.

30- من النص إلى الفعل: أبحاث عن التأويل: بول ريكور. ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، المركز الفرنسي للثقافة، القاهرة، ط 1، 2001

31- موسوعة المستشرقين: عبد الرحمان بدوي، دار المعلمين، بيروت، ط3، يوليو 1993م.

32- نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر: لخضر شايب، مكتبة العبيكان، د.ت.

33- النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبير: قطب الريسوني، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، المملكة المغربية، ط1، 2010

34- نقد النص: علي حرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1993م.

35- هسهسة اللغة: رولان بارت، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1999

36- الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده: محمود ماضي، دار الدعوة، الإسكندرية، ط1، 1996

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016